السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة النصر



المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة

النصر

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة النصر

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (1)
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا (2)
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

صدق الله العلي العظيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، من الأولين والآخرين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فهذه كلمات يسيرة، ترتبط بسورة النصر.. وفقنا الله تعالى لإثارتها في محضر إخوة أكارم، ثم استخرجت من أشرطة التسجيل، وأعيد النظر فيها تمهيداً لوضعها بين أيدي القراء الكرام، على أمل أن يجدوا فيها ما يبرر بذل الجهد وصرف الوقت في قراءتها.

ونرجو من الإخوة الأكارم أن يتفضلوا علينا بما يظهر لهم فيها من دلائل القصور أو التقصير، علنا نوفق لترميم ما يمكن ترميمه، ولهم منا الشكر، ومن الله الثواب والأجر..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين..

3 شهر شوال 1437 هـ.ق.

عيثا الجبل (عيثا الزط سابقاً) قضاء بنت جبيل ـ جبل عامل.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول:

أين ومتى نزلت السورة.. وشأن

متى نزلت سورة النصر؟!:

اتفقوا على أن سورة النصر قد نزلت في المدينة بعد الهجرة.. ولكنهم اختلفوا في سنة ووقت نزولها..

ففي بعض الروايات، عن الإمام الرضا، عن أبيه، عن جده «عليهم السلام»: إن أول سورة نزلت: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ وآخر سورة نزلت﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾[1].

قال العلامة الطباطبائي «رحمه الله»: «لعل المراد به: أنها آخر سورة نزلت

---

(1) عيون أخبار الرضا ج2 ص9 وبحار الأنوار ج89 ص39 ومستدرك سفينة البحار ج8 ص451 والبرهان (تفسير) ج1 ص69 ونور الثقلين (تفسير) ج5 ص609 و 690 وكنز الدقائق (تفسير) ج14 ص345 و 478 والميزان (تفسير) ج20 ص378 جميعها عنه. ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج1 ص308 وراجع: الإتقان ج1 ص27 عن مسلم.

تامة، كما قيل»[1].

فقيل: نزلت بعد خيبر في سنة ست.. كما سنرى.

وقيل: نزلت بعد فتح مكة.. كما سيأتي أيضاً.

ويلاحظ:

أولاً: هناك من يقول: إن بعض سورة اقرأ إلى قوله: ﴿**عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ قد نزل في بدء الوحي[2]، ولم تنزل السورة كلها، وإنما نزل الباقي منها بعد ذلك..

فالمراد بنزول السورة: أعم من نزولها جميعها، أو بعضها.

ثانياً: نحن نعلم: أن سوراً عديدة نزلت في المدينة بعد فتح خيبر، وإلى أن توفي «صلى الله عليه وآله»، وقالوا: إن نزولها كان دفعة واحدة أيضاً، فلا يختص الأمر بسورة النصر، ومن هذه السور على سبيل المثال:

1 ـ سورة المائدة، فقد روي عن محمد بن كعب القرطبي أنه قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة، وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله «صلى الله عليه وآله»[3].

وعن الربيع بن أنس قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله «صلى الله

---

(1) تفسير الميزان ج20 ص378.

(2) الإتقان ج1 ص240 عن المصاحف لابن أشتة، وعن البخاري ومسلم وغيرهما.

(3) الدر المنثور ج2 ص252 عن أبي عبيد، وتفسير الآلوسي ج6 ص47.

عليه وآله» في المسير من حجة الوداع وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها[1].

وصرحت الرواية عن أسماء بنت يزيد: بأن سورة المائدة نزلت كلها على النبي «صلى الله عليه وآله»[2].

وراجع ما روته أم عمرو بنت عبس، عن عمها[3].

وما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص[4]، حيث يظهر منهما نزول السورة كلها دفعة واحدة..

(1) جامع البيان ج6 ص112 والدر المنثور ج2 ص252 عنه.

(2) راجع: الدر المنثور ج2 ص252 عن أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر في الصلاة، والطبراني، وأبي نعيم في الدلائل، والبيهقي في شعب الإيمان، ومجمع الزوائد ج7 ص13 وتفسير القرآن العظيم ج2 ص3 والبداية والنهاية ج3 ص31 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص424 والسيرة الحلبية ج1 ص424.

(3) الدر المنثور ج2 ص252 عن مسند ابن شيبة، ومعجم البغوي، وابن مردويه، والبيهقي في دلائل النبوة، والسيرة الحلبية ج1 ص415.

(4) السيرة النبوية لابن كثير ج1 ص424 والإمتاع ج3 ص43 والسيرة الحلبية ج1 ص415 وسبل الهدى والرشاد ج2 ص258 والدر المنثور ج2 ص252 عن أحمد، ومجمع الزوائد ج7 ص13 وتفسير القرآن العظيم ج2 ص3 وفتح القدير ج2 ص3 والبداية والنهاية ج3 ص31.

وهذا عموماً يظهر أيضاً بالنسبة لسورة مريم، فراجع[1].

ثالثاً: روي: أن آخر سورة نزلت: المائدة، والفتح.

قال السيوطي: يعني: **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾**.

وروي عن عائشة قالت: آخر سورة نزلت المائدة، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه الخ..[2].

رابعاً: في رواية ابن عباس ذكر نزول عدة سور بعد سورة النصر، عاطفاً لها بكلمة «ثم»، فقال:

«ثم إذا جاء نصر الله، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة»[3].

وقريب من ذلك ما روي عن جابر بن زيد، مراعياً عطف السور بكلمة «ثم» الدالة على الترتيب، فراجع[4].

وقريب منه في الترتيب، ولكن بواسطة الواو.. رواية عكرمة والحسين

---

(1) الإتقان ج1 ص21 عن الطبراني.

(2) الإتقان ج1 ص21 عن الحاكم والترمذي.

(3) الإتقان ج1 ص11 عن ابن الضريس.

(4) الإتقان ج1 ص25 ومجمع البيان ج10 ص554 والميزان (تفسير) ج20 ص377 و 378.

بن أبي العلاء[1]..

فما في الرواية المتقدمة، من أن سورة النصر هي آخر ما نزل غير مسلَّم.

إلا أن يقال: المراد: أن سورة النصر هي آخر السور القصار نزولاً.

وهذا هو الصحيح في معنى الرواية، وهو ما نذهب إليه، وبه ينحلُّ الإشكال.

ماذا عن فطانة العباس؟!:

وقد لفت نظرنا هنا: ما روي، من أنه لما نزلت سورة النصر قرأها رسول الله «صلى الله عليه وآله» على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى.

فقال «صلى الله عليه وآله»: ما يبكيك يا عم؟!

فقال: أظن أنه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله.

فقال: إنه لكما تقول.

فعاش بعدها سنتين ما رؤي فيهما ضاحكاً مستبشراً[2].

قال العلامة الطباطبائي «رحمه الله»: «روي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة، وقيل في وجه دلالتها: إن سياقها يلوِّح إلى فراغه «صلى الله عليه وآله» مما عليه من السعي والمجاهدة، وتمام أمره، وعند الكمال يرقب

(1) الإتقان ج1 ص10 عن البيهقي في دلائل النبوة.

(2) مجمع البيان ج10 ص554 وتفسير الميزان ج20 ص377 و378 عنه.

الزوال»[1].

ولنا هنا ملاحظتان:

الأولى: قول الرواية: «فعاش بعدها سنتين الخ..»، فقد عرفنا: أن سورة النصر قد نزلت بعد غزوة خيبر في سنة ست، وقد عاش «صلى الله عليه وآله» بعدها أربع سنوات، لا سنتين فقط.

الثانية: إن قول العباس بن عبد المطلب لا يتلاءم مع مستوى الذكاء الذي نعرفه عنه، حيث لم نجد ما يميزه عن سائر الصحابة.

ولا ندري لماذا لم نجد علياً «عليه السلام» سجل هذه الملاحظة، ولا غيره من عقلاء الصحابة، من أمثال: سلمان، والمقداد، وعمار، وأبي ذر، وسواهم من الخيار، ومن الصحابة الكبار.

على أن العباس لم يكن أيضاً من ناحية الإيمان والمعرفة والعلم في مستوى من ذكرناهم.

ولم يذكر عنه أنه كان من أوعية العلم، أو من عباد زمانه.

ولم نجد له من الأشباه والنظائر ما تشير إلى ذكاء خارق، ورأي سابق، وحدس صادق.. بل كان همّه منصرفاً لتدبير شؤونه المالية، والحفاظ على مكتسباته وتكريسها.

على أن في التاريخ العديد من الشواهد التي ليست في صالح العباس.

---

(1) تفسير الميزان ج20 ص378.

وقد أشرنا في كتاب الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» إلى العديد منها.

ونكتفي هنا بذكر شاهد واحد يرتبط بسورة النصر بالذات، وهو التالي:

إن سـورة النصر قد أخبرت عن أمر غيبي وهو حصول فتح عظيم يتغير به مجرى الأحداث، ويحصل به تحول حقيقي على صعيد الدعوة والدين في المنطقة بأسرها.

وسيأتي: أن فتح مكة هو المراد، وقد رأينا العباس في هذا الفتح بالذات يتحرك على خلاف ما يريده رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويسعى في نقض أوامره وأبطال تدبيره، وإجهاض مسعاه.. حيث إنه «صلى الله عليه وآله» لما نقضت قريش عهد الحديبية، واعتدت على خزاعة أمر «صلى الله عليه وآله» بالجهاد، وأمر الناس بالتهيئة لحرب قريش، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش بالأمر، فعلم النبي «صلى الله عليه وآله» بذلك، فأرسل علياً «عليه السلام»، فأخذ الكتاب من المرأة التي حملت كتاب حاطب.

وسار «صلى الله عليه وآله» إلى قريش حتى نزل مرّ الظهران، وقد غمَّت الأخبار على قريش.. وقد لقي العباس النبي «صلى الله عليه وآله» في الطريق، فدعاه إلى الالتحاق به، فالتحق..

ولعله «صلى الله عليه وآله» أراد أن يمنع العباس من إيصال خبره لقريش

بعد مفارقته له. ولكن العباس حين نزل النبي «صلى الله عليه وآله» مرّ الظهران قال ليلتئذٍ: يا سوء صباح قريش.. والله لئن بغتها رسول الله «صلى الله عليه وآله» في بلادها، فدخل مكة عنوة.. إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

ثم قال: أخرج إلى الأراك لعلّي أرى حطاباً، أو صاحب لبن، أو داخلاً يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فيأتونه فيستأمنونه.

فخرج، فصادف أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الخ..[1].

وهذا العمل ينقض تدبير النبي وسعيه لتعمية الأخبار عليها.

نزلت بعد فتح خيبر:

لا ريب أن سورة النصر قد نزلت بعد الهجرة إلى المدينة، فقيل: نزلت بعد غزوة خيبر في سنة ست، قبل فتح مكة بسنتين[2].

وهذا هو الأولى بالقبول، وقيل: نزلت بعد فتح مكة، كما عن ابن عباس والسدي، حيث زعما: أن النبي «صلى الله عليه وآله» مات بعد نزولها بسنة

---

(1) راجع: مجمع البيان (ط الأعلمي) ج10 ص470 ونور الثقلين (تفسير) ج5 ص693 وكنز الدقائق (تفسير) ج14 ص484 والميزان (تفسير) ج20 ص380 وبحار الأنوار ج21 ص103.

(2) الميزان (تفسير) ج20 ص376 و 377 ومناقب آل أبي طالب ص234 والبرهان للبحراني، تفسير سورة النصر.

واحدة[1].

ويفهم من الرواية المتقدمة عن العباس أيضاً: أنها نزلت قبل موت النبي «صلى الله عليه وآله» بسنتين، حيث قالت الرواية: فعاش بعدها سنتين، ما رؤي فيهما ضاحكاً مستبشراً[2].

ولا مجال لاعتماد هذه المزاعم لما يلي:

أولاً: إنه لم يحصل بعد فتح مكة أي فتح عظيم، دخل الناس بسببه في دين الله أفواجاً.. فإن ذلك قد حصل بعد فتح مكة، حيث توافد الناس بعده أفواجاً ليعلنوا دخولهم في هذا الدين.. وكان ذلك في سنة تسع، وقد سميت بعام الوفود.

تقدم: أن هذه السورة قد نزلت قبل الفتح مبشِّرة بحصوله.. وهذا هو المعتمد.. وكلمة «إذا» التي هي ظرف لما يستقبل من الزمان من الشواهد الظاهرة على هذه الحقيقة.. وتكون هذه السورة من شواهد النبوة، ومن دلائل صحة هذا القرآن.

أهمية وقيمة الإخبارات الغيبية:

وقد أخبرت سورة النصر عن حصول عدة أمور في مستقبل الأيام:

(1) راجع: مناقب آل أبي طالب ج1 ص234، والبرهان للبحراني في تفسير سورة النصر. وراجع: تفسير القمي ج2 ص446.

(2) مجمع البيان ج10 ص554 وتفسير الميزان ج20 ص377 و 378 عنه.

أولها: أن نصراً إلهياً سوف يتحقق، وسيكون نصراً عظيماً، وتاماً، وحاسماً.

الثاني: أن الفتح الذي لا تقاس به سائر الفتوحات، بل هو فتح نهائي وحاسم، يكون هو الفيصل، الذي تبدأ بعده مرحلة جديدة مغايرة كثيراً لما سبقها.

الثالث: إن الناس سوف يتهافتون بعد ذلك على الدخول في هذا الدين أفواجاً.

إن هذه الأمور الثلاثة تحتم على النبي «صلى الله عليه وآله» أن يكون:

أولاً: في موقع المسبِّح لله والمنزه له، من خلال حمده تعالى على أفعاله الجميلة التي هي في حقيقتها تجليات لصفات الألوهية والربوبية.

ثانياً: أن يستغفر الله تعالى.. لأن الله سبحانه توَّاب وعواد بالخير على عباده التائبين، العابدين، والمخلصين له.

وهذه الأمور بمجموعها تعطي، ولو بصورة ضمنية: أن شوكة الشرك سوف تكسر، وأن دخول الناس في دين الله أفواجاً سيكون طوعاً، ومن دون أي إكراه.

ومن المعلوم: أن الإخبارات الغيبية ورؤيتها حين يتحقق مضمونها من أهم وسائل الإقناع للناس بصحة ما يدعوهم إليه النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، وبأنه مرسل من عند الله.. وأن الدين الذي يدعوهم إليه هو دين الله تعالى.

وبذلك لا يبقى عذر لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة، ولا بد من البخوع والخضوع للحق الذي جاءهم به، مهما اختلفت طبقاتهم، وتفاوتت ثقافتهم.

ويستوي في ذلك: العالم والجاهل، والذكي والغبي، والمؤمن والكافر، والمرأة والرجل، والعالم باللغة العربية، والجاهل بها..

ويترسـخ هذا المعنى، إذا تعددت هذا الأخبار الصادقة، وصرحت ببعض التفاصيل..

كما أن دور هذه الوسيلة الإقناعية ينمو ويتعاظم حين ندرك أن أكثر الناس لا يتيسر لهم فهم الحقائق العلمية، ولاسيما الراقية منها، والتي لا يدركها إلا أساطين العلم، ومهرة الفنون.

وقد يحاول هؤلاء وأولئك جحود الحقائق أو تزويرها، والمكابرة فيها، طمعاً بالدنيا، واستسلاماً للأهواء.. كما فعله أكثر علماء اليهود وغيرهم، ممن حاول التشكيك بالأنبياء والمرسلين.. وجحدوا الحق الذي جاؤوهم به، ولا يزال أكثرهم يفعل ذلك إلى يومنا هذا.

فهذه السورة إذن، تدل على صدق نبينا، فيما جاء به، بسبب الإخبارات الغيبية التي تضمنتها، وقد ظهر صدقها، وتحقق مضمونها بعد سنتين، أو ثلاث.

الفصل الثاني:

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ..

بداية:

1 ـ عرفنا: أن سورة «النصر» بما تضمنته من أخبار غيبية قد كان لها أثر إيجابي في حفظ إيمان الناس، وترسيخ يقينهم بنبوة نبيهم، وبما يجريه الله تعالى على يديه، وما منحه الله إياه من كرامة وعزة وسؤدد، ثم بحتمية حصول كل ما أخبر به عن المستقبل، من نصر إلهي، وفتح حاسم وعظيم، ومن دخول الناس أفواجاً في دين الله.

وقد جاءت البشائر، بالنصر الإلهي والفتح العظيم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً متناغمةً مع ما كان يعتقده العرب، من أن مكة لا يفتحها ظالم ولا جبار، بل يفتحها نبي.. فإن كان النبي محمد «صلى الله عليه وآله» محقاً فهو يفتحها، وإلا جرى عليه كما جرى على أبرهة.

3 ـ إن هذا الفتح قد باغت الجميع، لأنه لم يكن له مبررات موضوعية، ولا كان محتملاً، لعدم توفر إمكاناته، ومجرد حصول نصر هنا، وآخر هناك.. فلا يعدو كونه حروباً دفاعية صغيرة تقوم على سرعة الحركة وحسن التخطيط للمباغتة، ولم تكن حروباً هجومية كبيرة، تسقط الكيان، في نصر حاسم، وفتح قائم ودائم.

4 ـ إن هذه السورة قد جعلت صدق رسول الله، وصحة ما جاء به مرهوناً بحصول هذا النصر والفتح، ليكون العدو بعد تحقق هذه الأخبار،

وظهور صدقها في موقع الجاحد والظالم، والمبطل والمكابر، لأن النصر والفتح قد جاء من خارج سياق المعقول والمأمول.

فسورة النصر سورة عظيمة وشديدة الأهمية، ومصيرية للإسلام كله.

وقد آن لنا أن نشرع في بيان ما يرتبط بآيات هذه السورة المباركة، مع التذكير: بأننا لم نتعرض بشيء حول آية: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ اكتفاءً منا بما ذكرناه حولها في تفسير سورة الفاتحة..

فإلى ما يلي من بيانات ومطالب..

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ:

إن أول كلمة تواجهنا في هذه الآية المباركة هي كلمة «إذا»، التي هي ظرف لما يستقبل من الزمان، متضمن لمعنى الشرط..

وقد أشرنا في العديد من المناسبات إلى أن كلمة «إذا» تستعمل في مورد اليقين، بحصول الشرط، أو فقل: العلم العرفي ـ وهو الاطمينان الذي لا يحتم الحصول، ولكن يجعله متوقعاً، بسبب إكمال أسبابه الظاهرية.. فإذا قال قائل: إذا جاء فلان، فأعطه المفتاح. فالقائل يتحدث عن أمر يرى أنه سوف يحصل عادة، وهو المجيء..

فإن كان المتكلم هو الله تعالى، فقد يكون الغرض هو إظهار ذلك جرياً على ما تقتضيه الأسباب الظاهرية..

أما كلمة «إن» الشرطية، فتستعمل في مورد الشك بحصول الشرط.. لأن مفادها مجرد تعليق الجزاء على حصول الشرط.. فإذا قال قائل: إن جاء

فلان، فاعطه المفتاح.. فذلك يعني: أن المجيء قد يحصل، وقد لا يحصل.

وقد يدور بخلد البعض: أن الله سبحانه عليم بكل ما كان وما يكون، فما معنى الحديث عن الشك في الحصول من قبل عالم الغيب والشهادة؟!

ونجيب:

بأن غرض المتكلم قد يكون هو مجرد إظهار الشك، ارشاداً للسامع إلى أن المعطيات المتوفرة لا يرى الناس أنها قابلة للاعتماد، ولا توجب لهم يقيناً بحسب العادة.

أي أنه تعالى يتكلم وفق ما يظهر للمخاطب من أسباب.. وإن كان المتكلم عالماً بمآل الأمور، فالخطابات الإلهية تابعة للحاجات التربوية والتعليمية للأمة، وليست تابعة للعلم بالحصول وعدمه، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك.

فكلمة «إذا» في هذه الآية تشير إلى حتمية مجيء نصر الله، وحصول الفتح.

ومقام الخطاب وغرضه هنا يفرض إظهار الجزم بحصول ما يخبر عنه، ولا يصح الترديد، ولا إظهار الشك فيه، لأن ذلك يخرجه عن سياقه، ويجعله غير ذي جدوى، لأن احتمال حصول شيء أو أشياء، يمكن أن يطلقه أي كان من الناس، ولا يعبر عن شيء، ولا يشير إلى أنه يعلم الغيب، أو غير ذلك.. فإن تحقق أحد شقَّي الاحتمال لا يدل على أية خصوصية في من أطلق الاحتمال.

والترديد بين حصول الأشياء، وعدم حصولها ليس أمراً خارقاً للعادة، لأن هذا الترديد قائم وثابت في كل الأشياء.

وهذا لا يعطي سكينة، ولا يقيناً، ولا طمأنينة بشيء.

وأما الإخبار عن أمر مستقبلي على سبيل الحتم والجزم ثم حصول ذلك الشيء، فهو أمر معجز بلا ريب.. وخصوصية الجزم واليقين هي التي جعلته معجزاً.

إِذَا جَاءَ:

قد يقال: لقد قال تعالى هنا: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ**﴾ ولم يقل: إذا أتى نصر الله، أو إذا نزل نصر الله، أو نحو ذلك، فلماذا كان ذلك؟!

ويجاب:

بأن كلمة «أتى» تختلف عن كلمة جاء.. وليستا من قبيل الاسمين المترادفين الموضوعين لمسمى واحد، كما لو سميت مولوداً بزيد، وسميته بعمرو أيضاً، فإن كلمة زيد لا تدل على خصوصية في مسماها، ولا تدل كلمة عمرو على ذلك أيضاً، وهذا هو حال التسميات..

أما إذا كان من قبيل الأوصاف والحالات مثل: جاء، وأتى، فيمكن أن تكون كل واحدة منهما تشير إلى خصوصية لا تشير إليها الأخرى.

فكلمة «جاء» مثلاً تدل على القدوم من مكان إلى مكان، وعلى أن القادم قد وصل إلى هذا المكان الثاني بالفعل.

فالنصر إذن سوف يتحقق ويصل إلى الهدف الذي حدد له.

لكن كلمة «أتى» تدل على التحرك من مكان باتجاه مكان آخر، وإن لم يبلغ المكان الثاني بعد..

ويشهد لذلك:

أولاً: قوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾[1]. فإنها تدل على أن هذا الذي أتى لم يصل إليهم بعد. وهذا ليس هو المراد من سورة النصر. ولأجل ذلك نهاهم عن استعجاله، إذ لو كان وصل إليهم بالفعل لم يكن معنى للاستعجال وعدمه.

ثانياً: من الشواهد على ذلك أيضاً: أن اختلاف حروف التعدية يشير إلى الاختلاف في الخصوصيات الكامنة في مواردها أيضاً.. فمثلاً إذا لاحظنا كلمة «أتت عليه» في قوله تعالى: ﴿**مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**﴾[2]. نجد أنه كلام صحيح، ولا غبار عليه، فلو بدلنا كلمة أتت عليه، وقلنا: جاءت عليه، فإنه يصبح ممجوجاً، وغير مستساغ.

وهذا يدل على وجود خصوصية يمكن الإشارة إليها بكلمة «أتت عليه»، ولا يمكن الحصول عليها بواسطة كلمة «جاءت».. سواء ألحقنا بها كلمة عليه، أو لم نلحقها.

وهذه الخصوصية هي الوصول إلى الشيء، واستيعابه كله. وربما تجاوزته إلى غيره، كما لو قلت: أتت عليه مئة سنة من العمر، أي مرت عليه وربما تجاوزته. وكذا لو قلت: أتى السيل على زرع فلان. أي غمره وأتلفه، ولا يقال: جاء عليه السيل.

وهذه الخصوصية.. أعني الإستيعاب والشمول ليست مطلوبة هنا في

(1) الآية 1 من سورة النحل.

(2) الآية 42 من سورة الذاريات.

سورة النصر، بل المطلوب هو عدم الشمول والاستيعاب لجميع الناس..

كما أن المطلوب هو خصوصية وصول النصر والفتح لشخص النبي، ومن هم منه وإليه، وفي خطه، ومن أسهم في وصوله إلى أهدافه.

وإبعاد من تبعوه طمعاً بالدنيا، وسعياً للحصول على مآربهم وشهواتهم، وكذلك من شاركوا للرياء والسمعة، وغير ذلك من أهداف وضيعة، أو شنيعة.

لمن هذا النصر والفتح؟!:

إن هذه السورة تعد النبي «صلى الله عليه وآله» بمجيء نصر وفتح، ولكنها لم تحدد الجهة، أو الفئة، أو الشخص، أو الأشخاص الذين يكون هذا النصر لهم، ولمصلحتهم..

أو فقل: لم تذكر الآية من هو المنصور، ومن سيكون الفتح له، وسيكون المستفيد منه.

مع أن الخطاب في آيات السورة موجه لرسول الله «صلى الله عليه وآله» كما يظهر من قوله: ﴿**رَأَيْتَ**﴾، وقوله: ﴿**فَسَبِّحْ**﴾، و ﴿**رَبِّكَ**﴾، و ﴿**اسْتَغْفِرْهُ**﴾.

أي أنه تعالى لم يقل: إذا انتصرتم أيها المسلمون، أو إذا انتصرت يا محمد، فسيكون كذا.

بل الملاحظ: أنه تعالى في خطابه للنبي «صلى الله عليه وآله» اعتبر النصر هبة إلهية ابتدائية منه تعالى، ولم يصرح: بأن لأحد من المسلمين نصيباً فيه.

ولعل سبب هذا الإبهام العمدي: أنه سبحانه يريد أن يحرم أصحاب

الأهواء، وطلاب اللبانات من فرصة ادِّعاء: أنهم قد أسهموا في هذا النصر، وبذلوا جهداً فيه.. فإن الجهد الذي بذلوه كان لأجل الحصول على مآرب وشهوات دنيوية رخيصة ورذيلة، ولم يكن لوجه الله، وفي سبيل قيام دينه، فلماذا يعطيهم الله شيئاً لم يسعوا إليه.

ومن هذا النوع من التعابير الهادفة إلى تفويت الفرصة على الاستغلاليين قوله تعالى في آية الغار: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**﴾(1).

فأرجع الضمير في قوله: ﴿**سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ**﴾ إلى خصوص رسول الله «صلى الله عليه وآله» وخصه دون سواه بالتأييد بجنود لم يروها.

بينما تجد أنه تعالى في آية أخرى يقول: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾(2).

فقد أراد تعالى من الآية الأولى تحديد من يستحق العناية، والسكينة، والتأييد، وحصره برسول الله «صلى الله عليه وآله».. ولكنه في الآية الثانية أضاف إليه خصوص المؤمنين، ومن شملته السكينة معه «صلى الله عليه وآله» أيضاً. وكأنه يريد إخراج أصحاب الأهواء وطلاب المناصب والغنائم عن شمول السكينة لهم.

---

(1) الآية 40 من سورة التوبة.

(2) الآية 25 و 26 من سورة التوبة.

وكل ذلك يوضح لنا: السبب في أنه تعالى لم يقل: إذا جاءك نصر الله، والفتح، مع أن الخطاب بعد هذه الآية خاص به «صلى الله عليه وآله».. فإنه تعالى أراد أن ينصف المؤمنين، ويمنحهم نصيبهم من هذا النصر، ويعطي كلاً منهم بحسب جهده، وعلى قدر إخلاصه، على قاعدة: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾[1].

لماذا لم يقل: أنزل النصر؟!:

وما ذكرناه آنفاً يمهِّد لمعرفة السبب في أنه تعالى لم يقل: «إذا أنزل الله النصر» مثلاً، فإن كلمة أنزل تستبطن معنى العموم والشمول لمن حضر، سواء أكان مؤمناً أو منافقاً، وممن يستحق النصر، أو ممن لا يستحقه، بل يستحق الطرد والعقوبة، وإن شارك في القتال، ولكن بنية مريضة وسيئة.

ولا يريد الله سبحانه أن يمنح هذا النوع من الناس هذا الشرف والكرامة، وهم لا يستحقونها.

النصر والفتح:

وقد يدور بخلد البعض: أن الحديث عن النصر الإلهي يغني عن ذكر الفتح، لأنهما متلازمان.

ويجاب:

بأن إمكانات المسلمين لم تكن تسمح بتحقيق فتح عظيم، وإن كان

(1) الآية 7 من سورة الزلزلة.

يمكن أن يحقق نصراً محدوداً، وفي نطاق خاص، وبجهد، وجدٍ، وتعب.

ولكن هذا النصر المحدود ليس فتحاً.. لأن الفتح هو أن تسقط مقاومة العدو، وتقوض كيانه، وتستولي على قراره السياسي، والقضائي والاجتماعي، وغيره.

أما النصر، فهو ضربة عسكرية مؤلمة، في نطاق محدود، وإن لم تفقد العدو القدرة على تجديد قواه، والعودة إلى ساحة التحدي.

أما إذا اجتمع النصر المبين، والفتح العظيم والحاسم، فقد وصلت الأمور إلى خواتيمها وتحقق الهدف الأعظم، والأفخم.

ولأجل أثر هذا النصر الإلهي، والفتح الرباني في إقامة الدين وإعزازه، كان لسورة النصر عظيم الأثر في قبول الصلاة أحسن قبول. إن قرئت فيها، أو قرئت عندها سبع مرات، كما ورد في الروايات[1]..

ولعل هذا هو الذي أعطى الصلاة مضمونها ومعناها، وحضورها القوي في وجدان المصلي، الذي رأى بأم عينه كيف هيَّأ الله لهذا النصر والفتح من دون أن يكون هناك أية قدرات تبرر حصولهما، كما تقدمت الإشارة إليه، ولا بد أن يشعر الإنسان المؤمن بآثار سورة النصر عليه في رسوخ يقينه بالتوحيد، ونبوة نبيه «صلى الله عليه وآله»، وصحة دينه، وقرآنه، وسائر ما جاء به..

(1) راجع: البرهان (تفسير) ج5 ص783.

إضافة النصر إلى لفظ الجلالة:

1 ـ وهذا النصر الذي لم تكن له مقومات، ووسائل، وأدوات، ودلائل، وهو خارج عن دائرة توقعات العقلاء، يعطي أن القوة الغيبية الإلهية هي التي صنعته، ليكون الإسفين الذي يدك أركان الشرك، ويقوِّض بنيان الكفر، بطريقة وجدانية وواقعية، من خلال إظهار هذا الربط الوجداني بين النصر والفتح الفاقد لكل عناصر وجوده وبين الله تبارك وتعالى.. من حيث إدراك استحالة تفسيره إلا بالاستناد إليه تعالى.

2 ـ وقد تقدم التنويه بحقيقة أن الفتح أرقى من النصر، وأنه قد يمكن توقع حدوث نصر، حيث لا يتوقع حدوث فتح يغير المعادلات، والسياسات، ويستلب من العدو القرار، بعد أن تلاشت قوته، وذهبت ريحه، وما إلى ذلك.

أما النصر في معركة، فقد يأتي بسبب عوامل طارئة تمنح فريقاً الفرصة، فإذا أحسن استغلالها تفوَّق على عدوه، وانتصر عليه..

والنصر هو التغلب على قوة أعدها العدو، بالقوة الحاضرة، والإمكانات الطبيعية.

وهناك فرق آخر بين النصر وبين الفتح، وهو: أن النصر هو كسر شوكة العدو، وإن لم يسقط هيمنته، ويستول على قراره، ويهدم كيانه.

أما الفتح، فهو بعد الاستيلاء على القرار السياسي وإسقاط الكيان، يتواصل ويستمر ليستولي على المشاعر، ويعمل على إنشاء بنية فكرية وحضارية، واعتقادية.

ولأجل ذلك قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة ﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً**﴾.. فجعل تعالى هذا الإقبال على الدخول في دين الله، من مظاهر وتجليات هذا النصر الإلهي، والفتح الرباني، فهو فتح للعقول والقلوب والمشاعر.

الفصل الثالث:

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً

بداية:

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً**﴾.. حيث نجد فيها الكثير من الأمور التي تحتاج إلى بيان..

فلاحظ ما يلي من مطالب:

الحديث عن الرؤية:

إن أول كلمة تواجهنا في هذه الآية المباركة هي كلمة ﴿**وَرَأَيْتَ**﴾، التي تحتاج إلى بيان من أكثر من جهة..

فمن الأسئلة التي يمكن أن تثار هنا:

إنه ما الحاجة إلى الحديث عن الرؤية؟! ألم يكن يمكن الاستغناء عنها بالقول ـ مثلاً ـ: ودخل الناس في دين الله أفواجاً؟!

ويجاب:

بأن الحديث عن الرؤية مطلوب ومؤثر، فهي تفيد حتمية حصول ما بعدها، وأن علله تامة، ولا قصور فيها.. وهي تفيد: أن هذه الحتمية قد بلغت حـداً من الوضوح والرسـوخ جعل بالإمكان الإخبار عن الحصول

للمستحيل قبل الحصول، فإن تجسيد هذا النصر، وظهوره ورؤية آثاره وتجلياته، وبركاته، أمر يربط على القلوب، وتأنس به النفوس، ويفرح به المؤمنون ويشعرون معه بالعزة والكرامة، والأمن والقوة، كما قال تعالى في سورة المؤمنون عن غلبة الروم على الفرس: ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ**﴾(1).

فإن كلمة ﴿**وَيَوْمَئِذٍ**﴾ تشير إلى الحضور والمعاينة لما تحقق من وعد الله سبحانه، وأعطى ذلك الطمأنينة بالرعاية الربانية لأهل الإيمان.. وربط بذلك على قلوبهم، من خلال الإحساس المباشر بآثار النصر، بالاستناد إلى الحواس التي تنقل الإنسان من مرحلة اليقين إلى مرحلة عين اليقين.. حيث لم يعد ذلك مجرد إدراك عقلي تجريدي، وتصورات محضة..

ويشهد لهذه الحقيقة: قول إبراهيم «عليه السلام» لربه: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى.**

قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟!

قَالَ: بَلَى! وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾(2).

---

(1) الآية 4 و5 من سورة المؤمنون.

(2) الآية 260 من سورة البقرة.

الخطاب المفرد:

وقد قال سبحانه: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ مستفيداً من تاء المخاطب المفرد.. ولم يقل: «رأيتم»، مع أن دخول الناس في دين الله أفواجاً، لا يراه شخص واحـد، بل يراه عموم الناس.. فلماذا هذا التخصيص بالمخاطب المفرد دون الجماعة؟! ولماذا جاء بالكلام بصيغة الخطاب للحاضر، ولم يتحدث عن رؤية تحصل من أي كان، بأن يقال مثلاً: ويرى بالبناء للمجهول؟!

ويجاب:

بأن الخطاب في الآية الشريفة موجه لرسـول الله «صلى الله عليه وآله» وهو الفرد الأكمل، والمحور، والمدبر، والهادي، والحامل لأعباء المهمة الإلهية الكبرى، القاضية بإبلاغ الدين، ونشر أعلامه، وتوطيد أركانه، وإقامة بنيانه، وهو الذي تحمل أعظم الأذى في هذا السبيل.

وهو الذي يدرك عظمة هذا النصر، وما يعنيه وما يؤسس له هذا الفتح. وهو الذي يتحمل مسؤولية شكر هذه النعمة، والقادر على حفظ هذا العطاء الإلهي بالشكر العظيم، والخضوع التام للمنعم المتفضل، من خلال تنزيه الله وتسبيحه بحمده تعالى، واستغفاره على أفضل وأتم، وجه، وأوفاه..

وأما الآخرون، فإن أكثرهم يشوب أعماله، وحتى جهده، وجهاده الوهن، والقصور والتقصير، وحب الدنيا، وليسوا مؤهلين للوفاء التام بموجبات هذا النصر والفتح

يَدْخُلُونَ:

وقد قال تعالى: ﴿**وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ**﴾.. ولم يقل: دخلوا.. ولعله ليفيد بالفعل المضارع التواصل والاستمرار والحيوية، ليكون بشارة لنبيه «صلى الله عليه وآله» بالبقاء والدوام، وليس مجرد حالة ظهرت في الناس، ثم خمدت.

كما أنه يفيد التجدد والحدوث، وأنه فعل اختياري للناس ليس فيه إكراه ولا اضطرار، مع أن هؤلاء الذين يدخلون في دين الله أفواجاً كان أكثرهم، أو كان فيهم من حارب هذا الدين وأهله لسنوات كثيرة.

ويرى بعض الإخوة الأكارم: أنه يصح استعمال المضارع في كلمة «يدخلون»، لأن المطلوب: هو أن يحصل التسبيح والاستغفار في حال، وطيلة فترة دخول الناس أفواجاً.. بغض النظر عن مقدار هذه الفترة، التي قد تطول، وتقصر، وبغض النظر عن كون الدخول في الدين عن إكراه، أو عن اختيار.. وليس المطلوب الانتظار حين انتهاء الدخول، ثم تسبح وتستغفر مرة واحدة.

فِي دِينِ اللهِ:

وفي قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾. إشارة لعدة أمور، نذكر منها:

1 ـ إنه تعالى قد ذكر أمراً دينياً كثمرة لهذا النصر المادي، والفتح الذي يسقط الكيان، ويستولي على القرار. مع أن البشر يتوقعون قدراً من المشاكلة بين النصر المادي والفتح والحاكمية، وبين ثمراتهما كالدخول في الطاعة، والقبول بالسلطة، وما إلى ذلك.

2 ـ ويلاحظ أيضاً: أن هذا الأمر الديني يرجع في معناه ومغزاه للناس كل الناس، لا إلى شخص رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولو من خلال انتفاع ذريته به من بعده مادياً، أو سلطوياً، أو نحو ذلك.

3 ـ إن هذه السورة تؤذن بأن مجيء هذا النصر الإلهي والفتح الرباني يترافق مع رحيل النبي الذي جاهد، وبذل وضحى، وأوذي ـ عن هذه الدنيا.. ولن يكون الفرد الممارس للسلطة، والمستثمر للنصر، ولن تكون الحاكمية والهيمنة له. فإنه «صلى الله عليه وآله» أسمى من أن يتلذذ بالسلطة، وأن يزهو بطاعة الناس وخضوعهم له.

بل كان هدفه هو طاعة الله، وإقامة دينه، لمصلحة البشرية كلها، وهذا ما حصل بالفعل.

4 ـ وقد كان يمكن أن يقول: يدخلون في الدين. أي الدين المعهود، الذي لم يزل النبي «صلى الله عليه وآله» يدعو الناس إليه، فلماذا جاء بلفظ الجلالة، وقال: ﴿**فِي دِينِ اللهِ**﴾؟! مع أن الناس يقولون: دين إبراهيم، ودين النبي، ودين علي؟!

ويجاب:

بأن المطلوب: هو إبعاد أوهام المبطلين، ووسوسات شياطين الجن والإنس عن أن تتمكن من التزيين لبعض ضعفاء العقول والإيمان بالقول: إن المطلوب هو تضخيم صورة هذا، أو تكريس شخصانية ذاك، من خلال الاستيلاء على ثمرات جهود الناس، ونسبتها إلى غيرهم.

وبهذا التعبير يكون قد حرم هؤلاء الضالين من أية ذريعة للتضليل مهما صغرت، أو كانت تافهة، ويسلبهم القدرة على التجني والافتراء على الحق وأهله.

وليكون أول من يحاسب هؤلاء المفترين، هو ضميرهم الذي يُظهر لهم باطلهم بعجره وبجره، فإن إدراك الحق والتمييز بينه وبين الباطل ميسور للناس جميعاً، وإن جحده الكثيرون .

أَفْوَاجاً:

وقوله تعالى: ﴿**أَفْوَاجاً**﴾. يشير إلى أن هذا الفتح وذلك النصر يجعلان قضية الدين هي قضية الأمة، ويخرجانها من دائرة المنافع الشخصية الضيقة التي تتأثر بالأهواء، وتخضع للانفعالات والعصبيات، والمصالح الخاصة. التي هي عوامل ذاتية، شخصية، وليست من ثمرات ذلك الفتح العظيم.

لكن تحرك الجماعات للدخول في دين الله أفواجاً أكثر ظهوراً، وأوضح دلالة على أن سببه هو الفتح والنصر الإلهي.. من حيث إنهما أزالا الموانع التي كانت تدعو الناس للإحجام والترقب، وعدم الدخول فيما يعتبرونه مغامرة.

كما أن هذا الفتح والنصر قد كشفا للناس عظمة الرسول، وسماحة الإسلام، ورحمة ربهم بهم، وأوصل الأمور في وضوح الحق، وتمييز المظلوم من الظالم إلى حد البداهة التي لا يمكن إنكارها، أو الجدال فيها..

وهذا الأمر هو الذي جعل الناس يتعاملون بعفوية، وطمأنينة، وثقة، ورضا، لا خضوعاً للقوة الظالمة، والسيف العدواني، بل خضوعاً لقوة الحق، وسيف أهله الذي يدافعون به عن المظلومين، وعن المستضعفين، وعن الدين وأهل الدين.

فظهر: أن حركة الناس أفواجاً للدخول في هذا الدين كانت طبيعية، وعقلانية.. وليس فيها مغامرة، ولا تسرع، أو انبهار.

لا إكراه في الدين:

لقد تحدثت هذه الآية المباركة عن دخول الناس أفواجاً في دين الله، وقد فهمنا من هذا الاندفاع الجماهيري العفوي، ومن استعمال صيغة المضارع في قوله: ﴿**يَدْخُلُونَ**﴾: أن هذا الدخول كان اختيارياً، ليس فيه أي إكراه..

وبذلك يكون مبدأ الحرية الاعتقادية، قد أخذ مداه في المجال التطبيقي، وفقاً لقوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

فقد قررت هذه الآية المباركة حرية اختيار المعتقد، بعد وضوح الحق، وتمييزه عن الباطل، وهذا التمييز والظهور التام هو المدى الذي ينتهي به وإليه وجوب نشر المعرفة الصحيحة، وبيان الحقائق للناس.

وبعد بلوغ هذا الحد من الوضوح، يوكل الأمر إلى الناس أنفسهم، ليختاروا، وليتحملوا هم مسؤولية وتبعات ما يختارونه.. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[2].

---

(1) الآية 256 من سورة البقرة.

(2) الآية 29 من سورة الكهف.

وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

ومبدأ الحرية الاعتقادية هذا هو من أعظم ميزات الإسلام، وعليه يتوقف الثواب والعقاب، ولأجل تكريس هذه الحرية كانت حرب بدر الكبرى، مع عتاة المشركين الذين عملوا على مصادرتها.

وهذه الحرية هي الحق الذي عناه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حين أمر أصحابه أن يطلبوا بحقهم الذي جعله الله تعالى لهم[2].

إن سياسة الطواغيت، وعتاة الشرك.. تقوم على حرمان الناس من حرية التفكير، والتدين بما يقتنعون به..

وإلا، فإن من أسلم من أهل المدينة، أو من القبائل المحيطة بها، لم يكن لهم حق آخر عند قريش، ليطالبوها به، بل كانت هي التي جاءت من مكة إلى المدينة لتقتل الناس لمجرد أنهم آمنوا بربهم ونبيهم، وبهذا الدين، وأخذوا به. أي أنها جاءت لتسلبهم حريتهم وقرارهم..

وواضح: أن من سلب منه هذا وذاك لم ينفعه ماله، ولا جهده، ولا غير ذلك، لأن ذلك كله يصبح في معرض المصادرة أيضاً.. إلى أن يصل الأمـر

(1) الآية 3 من سورة الإنسان.

(2) راجع: بحار الأنوار ج19 ص225 و 254 وشجرة طوبى ج2 ص274 وتفسير القمي ج1 ص264 ومجمع البيان (تفسير) ج4 ص440 والبرهان (تفسير) ج2 ص654 ونور الثقلين (تفسير) ج2 ص130.

إلى الاستعباد المبطن لهم بكل ما لهذه الكلمة من معنى، حتى لا يستطيع أحد أن يتصرف في غير ما يرضى أولئك العتاة.

فيسخِّرون جهده وطاقاته في خدمة أهوائهم، ويسلبون الناس منجزاتهم.

فإذا صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فذلك يعني: أنهم يشعرون أن أمراً أساسياً قد غيَّر مجرى الأمور، وأعاد إليهم ما استلب منهم، ومنحهم حرية التفكير، وحرية الاختيار، وأن القوة التي كانت تمنعهم من ذلك قد سقطت وتبددت..

وهذا الشعور يجعلهم يتعاملون مع الأمور بعفوية صادقة، قوامها، الاستجابة لفطرتهم، وما تقضي به عقولهم.

والإنسان عادة يحب أن يختار لنفسه أفضل الأمور، وأصفاها، وأخلصها، وأسناها، ويحب أن يمنح نفسه ما يقدر عليه من كمالات وخيرات.. وإن كان هناك من تستبد به أهواؤه وشهواته، وانفعالاته، وعصبياته، ويختار طريق الانحراف.. موهماً نفسه أن ما تدعوه إليه أهواؤه، وشهواته، ومصالحه، هو من موجبات كماله أيضاً، ومن مفردات الخير والصلاح له..

فظهر: أن حرية الفكر والاعتقاد لا مجال لمصادرتها، بل لا يمكن ذلك.

أما حرية التصرف الفردي، فهي مقيدة ومحدودة، بعدم العدوان بها على الآخرين، ومصادرة أمنهم، وتضييع حقوقهم، لأن الأمن الاجتماعي يكون حاكماً على الحريات الفردية.. وليس للحريات الفردية قدرة على مواجهته أو إسقاطه..

الفصل الرابع:

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ

الربط بين التسبيح، وبين النصر والفتح:

وقد رأينا: أنه تعالى بعد أن ذكر النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً قال: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾.

والسؤال هو عن الربط بين التسبيح والاستغفار، وبين ما سبق؟

ألم يكن الأولى أن يأمر الله تعالى نبيه «صلى الله عليه وآله» بحمده أو شكره، وإقامة الاحتفالات، للإشادة بهذه النعمة العظيمة؟! فيقول: فاحمد الله، أو فاشكر الله على هذا التفضل الإلهي عليك؟!

ويجاب:

بأن المطلوب لا يتحقق بغير التسبيح بالحمد، والاستغفار، وذلك لما قلناه، من أن هذا النصر والفتح قد جاءا بصورة غير محسوبة ولا متوقعة، لعدم توفر وسائلهما.. وقد أخبر الله تعالى عن حصولهما بصورة جازمة وقاطعة قبل سنوات من حصولهما بالرغم من ذلك..

فكان من الطبيعي: أن تثور الشكوك حول صدق هذه الأخبار الجازمة، ويكون ذلك من موجبات سقوط دعوى النبوة، واتهام الرب الذي يدعوهم النبي إلى عبادته وطاعته، بالعجز تارة، وبالجهل أخرى.. وبعدم الحكمة

ثالثة.. وغير ذلك..

فجاء هذا الأمر بالتسبيح ليزيل هذه الأوهام الباطلة، ويؤكد على علم الله بما كان وما يكون، وعلى قدرته وقوته، وحكمته، وصحة تدبيره، وعلى صحة نبوة نبيه المرسل، وقرآنه المنزل.

موجزات عن التسبيح بالحمد:

والتنزيه اللفظي له تعالى لا يفي بالغرض هنا، بل يجب أن يكون التسبيح بالحمد لأنه بمثابة إطلاق الفكرة مع دليلها القاطع، لقطع عذر الرائي والسامع.

لأن التنزيه هو نفي النقائص عن الذات الإلهية، كالجهل، والعجز، والبخل، وما إلى ذلك.

والمراد بالحمد: الثناء عليه تعالى بفعله الجميل الاختياري.

والباء هي للإشارة إلى الآلة والوسيلة، كالباء في قولك: كتبت بالقلم، فالحمد هو آلة التنزيه ووسيلته.. مما يعني: أن ينتج التنزيه.

والفرق بين المدح والحمد: أن الحمد هو ما ذكرنا، أما المدح فهو أعم من الحمد، لأنه الثناء عليه بما فيه من الصفات الجميلة، خلقة كانت فيه، أو اختيارية له.

وبعد ما تقدم نقول:

نحتاج إلى التحدث في هذه الآية عن أمور كثيرة، في ضمن ما يلي من عناوين ومطالب:

المعجزة تكرِّس المعنى الاعتقادي:

إن هذا الإخبار الإلهي عن نصر الله، والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.. ثم حصول ذلك بعد برهة من الزمان، دون أن تتوفر له الأدوات والقوى اللازمة، ولو في أدنى المستويات، لهو أمر إعجازي يثبت نبوة النبي، ويثبت صفات العلم، والحياة، والحكمة، والقدرة الإلهية، وسوى ذلك من صفات جميلة، وجليلة له تعالى.. ويثبت بطلان الشرك والكفر، ولا يبقي عذراً لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة..

الإعتقاديات شؤون حياتية:

وهذا الأسلوب في التعاطي مع الشأن الاعتقادي الذي يحسب الناس أنه لا يعدو كونه أمراً فكرياً ذهنياً تجريدياً، وتحويله إلى شأن حياتي وممارسة عملية هو من ميزات هذا الدين.

ولأجل ذلك نلاحظ: أنه تعالى لم يتحدث عن المعتقدات بمصطلحات فلسفية، ولا استدل عليها بأدلة ذهنية تجريدية..

ونذكر هنا بعض الأمثلة على ذلك، فنقول:

1 ـ يقول الله تعالى في الاستدلال على التوحيد: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾(1). فدل بذلك على أن الكون الذي يعيش فيه الإنسان يفترض أن يكون صالحاً، في سمائه وأرضه، وجميع مكوناته، لأن الكون الفاسد لا

---

(1) الآية 22 من سورة الأنبياء.

يمكن الوصول فيه إلى النتائج المتوخاة.

وبمقدار ما يعرض من فساد، فإنك سوف تشعر بالخسائر على صعيد النتائج النهائية، ولعلك تريد النفع والخير، فتحصل على الضرر، وتتعرض للخطر.

فظهر: أنه تعالى يريد أن ينفي الشرك بلسان، الصلاح والفساد في الكون، وما يضر وينفع..

ومن المعلوم: أن تعدد الآلهة يوجب العمى في الرؤية، حيث لا تستطيع أن تعرف مآل ونتائج أي أمر تدخل فيه.

فهذا الاستدلال القرآني يعرفنا: أن الشأن العقائدي في التوحيد والشرك أمر حياتي، وحيوي، يلامس سعادتنا، ويؤثر في مستقبلنا، ويخلُّ في طموحاتنا.

2 ـ قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[1].

ألف: ومن المعلوم: أن سرمدية الليل سوف تجعل حياة الإنسان في خطر، مع حرمان الإنسان، وكثير من الموجودات التي نعتمد عليها من الشمس، ومن نورها، و سائر ما ينبعث منها مما هو ضروري جداً، وأساسي في استمرار الحياة..

(1) الآيتان 71 و72 من سورة القصص.

ولعل حرمان الإنسان من «الضياء»، وما ينشأ عن ذلك من إرباك، ومن اختلالات، هو أبسط الأشـياء وأهونها، إذا قيس بسـائر المنافع التي يبتلى بالحرمان منها.

وقد ختم الآية بقوله: ﴿**أَفَلَا تَسْمَعُونَ**﴾، لأن حاسة السمع تبقى فاعلة حين لا يبقى للعين دور بسبب الظلام.

ب: إن سرمدية النهار، توجب الحرمان من كثير من الأمور الحياتية التي لا يهنأ للإنسان عيش ولا يرى سعادة بدونها، بل يوجب حرمانه منها تعرضه لأخطار وشرور هائلة..

وقد أشير في الآية إلى أبسط هذه الشرور والآفات، وهي الحرمان من السكون والسكينة في الليل، فإن ذلك يخلّ براحة الإنسان وبسعادته، ثم ختم الآية الثانية بقوله: ﴿**أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾، لأن وجود النهار يجعل من العين الباصرة الوسيلة المثلى للتعرف على الأشياء.

وقد طرح في كل واحدة من هاتين الحالتين سؤالاً على الناس يقول: من إله غير الله يرفع سرمدية الليل أو النهار إن كان الله تعالى هو الذي جعل هذه السرمدية التي لا يطيقها البشر.

فهو تعالى يقرر فكرة نفي الشريك لله تعالى بواسطة أمر نحسب أنه شأن فكري، وتصور ذهني، وهو: أنه لا يوجد إله غير الله يستطيع إزالة السرمدية لليل أو للنهار التي وضعها الله تبارك وتعالى.

وإذا عدنا لمضامين سورة النصر، فإننا نقول:

إنها لم تخرج عن هذا المسار البياني، فإن الإخبارات الغيبية المعجزة هي شأن عقائدي جوانحي قلبي يريد سبحانه استثماره في مجال التربية الإيمانية، ويحوله إلى شأن عملي، وعمل جوارحي.. ولذلك قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

التسبيح بالحمد:

ذكر الله تعالى التسبيح بالحمد في سورة النصر..

وذكره أيضاً في سورة الحجر في الآية 98..

ونقول في ركوع الصلاة في كل ركعة: سبحان ربي العظيم، وبحمده.

ونقول في سجودها مرتين في كل ركعة: سبحان ربي الأعلى وبحمده، وهي التسبيحة الكبرى.

ولكننا إذا عدلنا عن هذه وتلك، فعلينا أن نكرر كلمة «سبحان الله» ثلاث مرات لكي تقوم مقامها: وهي التسبيحة الصغرى.

ويلفت النظر هنا: التحديد بالثلاث، لا أقل ولا أكثر..

ولعل السبب في تثليث التسبيحة الصغرى: أن الحمد هو الثناء على الله لأجل أفعاله الاختيارية.. وهذه الأفعال تكشف لنا عن رحمته، وكرمه وقدرته، وعلمه، وغناه، ووفائه، وحكمته، وغير ذلك..

فإذا ثبتت له هذه الصفات، علم أنه تعالى منزه عن أضدادها، فهو ليس جاهلاً، ولا عاجزاً، ولا قاسياً، ولا بخيلاً، ولا محتاجاً الخ.. فظهر:

أولاً: أن الحمد تنزيه، وهو دليل على ثبوت النزاهة، فكأنك سبحت، ونزهت الله، وجعلت الحمد دليلاً على هذا التنزيه باعتبار أن كلمة «وبحمده»

جار ومجرور متعلق بمحذوف، تقديره: وأسبح بحمده أيضاً.

ثانياً: إنك نزهت الله تعالى مرة أخرى بقولك: سبحان ربي.

ثالثاً: إن كلمة العظيم، وكلمة الأعلى أيضاً تستبطنان تنزيهاً.. فإن الأعلى والعظيم، لا يكون كذلك إذا كان عاجزاً، وظالماً، وبخيلاً، وجاهلاً، وضعيفاً، وما إلى ذلك.

وهذا التنزيه بالحمد يعطيه: رسوخاً، وجلالة، وعظمة، وسعة، وقوة في ضمير الإنسان ووجدانه، ويؤكد الدواعي والمحفزات لدى هذا الإنسان على السير بالاتجاه الصحيح، لأنه تنزيه نابع عن شعور الإنسان بنعمه، وتلمسه لألطافه الغامرة، وفيوضاته الباهرة، وعطاءاته الجليلة.

ما فوق الكمال:

ومن الواضح: أن هناك كمالاً للموجودات، ولكنه ليس هو الدرجة القصوى في السمو والرقي، بل يكون فوق الكمال درجات.

وشاهدنا على ذلك: أن الله تعالى لا يبعث رسولاً، إذا كان يعاني من نقص أو اختلال، فالرسل هم الكمَّل من البشر، ولكنه مع ذلك يقول: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾(1).

وقال: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾(2).

(1) الآية 253 من سورة البقرة.

(2) الآية 55 من سورة الإسراء.

وذلك الكمال هو بلوغ الحد الذي يتوقع لهذا الموجود، أو ذاك من دون أن تجد فيه أي نقص أواختلال..

فالإنسان المعتدل الخلق جسدياً، ونفسياً، وعقلياً، وأخلاقياً، وسلوكياً، ولديه نبل وكرم، وغير ذلك إنسان كامل..

ولكن إذا انضم إلى ذلك علم، وأدب وعمل مثلاً.. فإنه يكون أكمل وأفضل من الفاقد، وكلما أوغل في العلوم والمعارف، ووظف ذلك في حياته العملية كان أكمل وأفضل أيضاً.

الحمد يدل على صفات الذات وصفات الفعل:

والتسبيح بالحمـد، كما يثبت صفات الفعل، مثل الكريم والرحيم، والشافي، أو الخالق، والرازق، فإنه يثبت أيضاً صفات الذات مثل: قادر، وعالم، وحي وقيوم.. لأن من يخلق هذا الكون بما فيه من أسرار، ومعجزات، ويتعاهد كل ما فيه بالتدبير، والرعاية، ويواصل فيضه عليه لا يمكن إلا أن يكون حياً، قيوماً، وقادراً، وعالماً، وما إلى ذلك من صفات ثبوتية.. كما أنه يكون منزهاً عن كل عيب، ونقص، وجهل، وعجز، وبخل، وغير ذلك.. ثم هو يكون جامعاً لكل صفات الفعل، من كرم ورحمة، ولطف، ورأفة بالعباد.. وما إلى ذلك.

فاتضاح هذه الحقائق للإنسان، تزيده معرفة بربه، وتعلقاً بأسباب رحمته وفضله، وتؤكد انقياده، وإيثار طاعته، وإخلاص العبودية له، وإيمانه بربوبيته وحاجته إليه.

بِحَمْدِ رَبِّكَ:

وكل ما قدمناه يوضح لنا: بعض ما ألمحت إليه كلمة ﴿**رَبِّكَ**﴾ في قوله تعالى: ﴿**بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾.. حيث لم يقل: بحمد الله، فإن معنى الألوهية يتجلى كما يتجلى معنى الربوبية بما لهذا المعنى من صفات وسمات من هذا الحمد.

كما أنه تعالى لم يقل: بحمد ربكم، أو: بحمد الرب، ربما لأن المطلوب: هو بيان الفضل الإلهي على خصوص رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإذا ترشح شيء من ذلك على من جاهد معه، وعلى من أخلص طاعته له، لأن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الوحيد في هذا العالم الذي يستحق إهداء هذا النصر الإلهي، والفتح الرباني إليه، لأنه هو الذي اختاره الله لرسالاته، وخصه بتفضلاته، ولأنه هو المنارة التي تشع منها أنوار الهداية في كل اتجاه إلى يوم القيامة، الذي يوظف كل ما أتاه الله تعالى إياه في تأييد الدين، وفي نصرة المستضعفين، ولا يستأثر لنفسه بشيء، وهو الذي تفضل الله عليه بأعظم المنح والهبات، حتى سخر له ما في السماوات والأرض، فنهض بأعباء هذا الدين، وحفظ جهود الأنبياء، وتضحيات الشهداء، واستثمر تعب العلماء والأصفياء.

ونوضح ما نرمي إليه بنحو آخر كما يلي:

إن الخطاب حين يوجه للجماعة، ويقرر: أنه تعالى يفيض على الناس من تفضلاته ونعمه.. فإن هذا الخطاب يكون على نحوين:

الأول: أن يكون البشر كلهم بحاجة إلى ذلك العطاء، ولا غنى لهم عن ذلك الفيض، كالرزق مثلاً، والحياة، وحتى حين يفيض سبحانه الوجود على

الشمس، فإنها تعطي ما يحتاجه البشر كلهم دون استثناء من نور ودفء، ولولاها لا نجد نباتاً ولا حياة، ولا ثماراً، ولا رزقاً.

الثاني: أن يخص بهذا العطاء صاحب الحاجة إليه، كالشفاء الذي يحتاجه المريض مثلاً، دون سواه، أو المعونة التي يحتاج إليها العاجز والضعيف.

ومن الواضح: إن هذا النصر الإلهي والفتح هما من القسم الأول، لأنهما من نعم الله الكبرى على البشرية جمعاء، والبشرية كلها بحاجة إليهما، وتستفيد منهما إلى يوم القيامة.. وليسا من الحاجات التي قد يتفق، وقد لا يتفق أن يحتاجها هذا وذاك، كشفاء المريض مثلاً.

فالكاف في قوله: بحمد ربك تشير إلى أن هذه النعم لا تختص بشخص دون شخص، بل هي جزء من العطايا للنبي الذي هو مكلف بكل ما يصلح الكون والحياة، ويسعد البشر في الدنيا والآخرة، وهي تعني بآثارها ومنافعها كل فرد فرد بشخصه..

والشخص الذي من أهم مسؤولياته سعادة البشر ـ كل البشر ـ في الدنيا والآخرة، وإيصالهم إلى كمالاتهم، وإلى كل ما هو خير وصلاح لهم كأفراد، أو كجماعات، في حاجاتهم التي بها قوام حياتهم، أو في حاجاتهم العارضة هو خصوص النبي «صلى الله عليه وآله» ولذلك أمره تعالى بقوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ بكاف الخطاب له «صلى الله عليه وآله» دون سواه.

التنزيه اعتقاد وإقرار:

وربما أمكن القول: بأن أمر الله تعالى نبيه بأن يسبح بالحمد، يشير إلى أن المطلوب في التنزيه لله ليس مجرد الاعتقاد القلبي، بل يحتاج إلى الإقرار

اللساني من خلال ذكر نعمه تعالى الدالة على هذا التنزيه، كما ألمحنا إليه.. ولأن الإقرار اللساني هو من الأعمال الفردية، فقد خاطب تعالى نبيه بكاف الخطاب في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾..

وليس من المقبول أن يمارس المتيقن بأمر اعتقادي الجحود اللساني، بل لا بد من الجهر بالحقيقة وإنشاء النسبة الكلامية، وأن يجعل لها حضوراً إنشائياً.. وضمها إلى اليقين القلبي.. تماماً كما يحتاج الزواج والطلاق، والعتق، ونقل الملكية، بالبيع.. إلى إنشاء هذه المعاني، وجعل الملازمة في عالم الاعتبار.

موارد التنزيه:

وقد ظهر مما قدمناه: إن من موارد التنزيه:

1 ـ الفعل الاختياري، كتنزيهه تعالى عن البخل، وعن الظلم، والخلف بالوعد، وقول غير الحق، وما إلى ذلك.. فإن صدور ما يدل على هذه النقائص ينافي كماله المطلق تبارك وتعالى.

2 ـ التنزيه في صفات ذاته تعالى، كتنزيهه عن العجز، والضعف، أو الحاجة، أو الجهل، وعن السهو وعن النسيان.

3 ـ التنزيه في الاعتقاد، كتنزيهه تعالى عن أمر خارج عن حقيقة ذاته، كنفي الشريك والولد، والصاحبة، وأن يكون له ولي من الذل.

الرحمة الإلـهية تقتضي الفيض:

من الواضح: أن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده، وهذه الرحمة والرأفة

هي المدخل لتوقع شفاء المريض، والانتصار للمظلوم، والرزق للمحروم وحتى الخلق للكائنات، ثم تدبير الموجودات، فإن للرحمة دوراً فيهما.

وإن كانت هناك معانٍ أخرى تدخل في دائرة الاقتضاء أيضاً، ككونه تعالى حكيماً، وكريماً، وغيرها من صفات الفعل الناشئة عن مقام ربوبيته تعالى، وهذه الصفات هي التي تقتضي الفيوضات على الكائنات.

وَاسْتَغْفِرْهُ:

إن السؤال الذي يستفز الباحث هنا: هو عن المبرر لأمر الله تعالى نبيه بالاستغفار هنا، فهل يمكن أن يصدر الذنب من النبي «صلى الله عليه وآله»، ليحتاج معه إلى الاستغفار؟!

وماذا عن مصير عقيدتنا بعصمة الأنبياء عن أي ذنب، فضلاً عن أن يحتاج «صلى الله عليه وآله» إلى التوبة كما ألمح إليه تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾؟!

ونجيب:

أولاً: إن هذا العطاء الإلهي العظيم الذي لا يوصف لا يعطى للمذنب الذي لا يخرج من ذنبه إلا بالاستغفار والتوبة.. بل يكون الذنب من موجبات الحرمان، فإن العطاء دليل تقدير وتكريم، وتعظيم، ومحبة، لاسيما وأن هذا الأمر بالاستغفار قد جاء في سياق استثمار هذا العطاء الهائل.

ثانياً: قد يحتمل البعض: أن الأمر بالاستغفار لا يعني وجود ذنب، بل يعني: أن عظمة هذا العطاء لا يفي بها شكر الشاكرين، مهما جدوا واجتهدوا.. فلا بد من التستر على هذا العجز، وهو ما يعنيه الاستغفار، فإنه يعني طلب

التستر بالمغفر، الذي هو الساتر، حتى لا يظهر ما تقتضي المصلحة ستره.

ثالثاً: إن مضمون سورة النصر يلتقي مع مضمون الآيات الأولى في سورة الفتح، فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً**﴾[1].

وتوضيح ذلك: أن هذا العطاء الإلهي العظيم يحتاج إلى حفظ ورعاية وصون، من الآفات والعوادي، لأن الله تعالى يريد له أن يتواصل ويستمر، فهو فيض دائم.

وقد ذكر في سورة الفتح: أن من ثمرات هذا الفتح الذي حبا الله تعالى به نبيه «صلى الله عليه وآله»: أن المشركين الذين حاربوه دهراً، متذرعين بأباطيل وأضاليل، وكان أعظم ذنب له عندهم رفضه آلهتهم، وأنه جاء بدين جديد، وأنه فرَّق جماعتهم، وقطع رحمهم.. إن هؤلاء قد عدلوا عن منطقهم هذا، إلى النقيض منه، فصاروا يعتبرون ما كانوا يعدونه ذنباً من ذنوبه التي يحاربونه عليها من حسناته وفضائله التي يثنون عليه لأجلها.

فاللام في قوله: «ليغفر» هي لام العاقبة، كاللام في قوله: ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً**﴾[2].

---

(1) الآيات 1 ـ 3 من سورة الفتح.

(2) الآية 8 من سورة القصص.

ومن الواضح: أنه لا معنى لمغفرة الذنب الذي لم يصدر بعد من النبي «صلى الله عليه وآله»، ولو صدر منه ـ والعياذ بالله ـ فينبغي أن يعاقب عليه لا أن يكرم ويعظم.. وإلا، فلما يعاقب سائر الناس دونه؟!

وهذا هو نفس المعنى الذي قررته آيات سورة النصر، فإن المطلوب هو تبدل الأمور، ليصبح ما كانوا يعدونه ذنباً، من أعظم فضائله «صلى الله عليه وآله»، ومن صالح أعماله..

إنه يدعو الله أن يتحول المغلوبون المهزومون، الشانئون إلى الموقع الآخر، وأن يغيروا منطقهم، وأن يمدحوا ما كانوا يذمون النبي «صلى الله عليه وآله» عليه.

ليكون إبطال الشرك، وتقبيحه على لسان أهله من أسباب إقبال الناس على الدخول في دين الله أفواجاً.

ويؤكد ما نقول:

أنه تعالى لم يقل: واستغفر لذنبك. بل قال: ﴿**وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾. أي أطلب من الله أن يسترك بلسان أعدائك، حين يجهرون بالثناء عليك، بسبب ما حاربوك من أجله.

إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا:

1 ـ وواضح: أن الضمير في «إنه» راجع للرب في قوله: ﴿**بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾، لا إلى لفظ الجلالة في الآية الأولى.

فالمطلوب: هو طلب المغفرة من الذات الإلهية بما له تعالى من مقام الربوبية،

وما تعنيه صفات الفعل من رحمة، وكرم، وخلق، ورزق، وشفاء، وتوابية، وغير ذلك.

2 ـ والتواب: هو العائد إلى عبده مرة بعد أخرى بفيوضاته، ونعمه، وألطافه، ورعايته، وحل مشكلاته..

وليس المراد: أنه يعود إليه بعد كل ذنب، فيغفر ذلك الذنب.

3 ـ إن كلمة «كان» في قوله كان تواباً لا يقصد بها الحديث عن أمر تصرم ومضى وانقضى، بل المراد: أن الله تواب في حقيقة ذاته، في الماضي، وفي الحال.. وسيبقى تواباً.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين..

كلمة أخيرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين،

وبعد.. فقد كانت تلك بعض اللمحات، أو الإشارات التي توخينا التنويه بها، بمناسبة الحديث عن سورة النصر المباركة.

ولعل بعض ما أوردناه في هذه المطالعة يحتاج إلى تقليم أو تطعيم، أو إلى بعض التصحيح أيضاً، فإن الإنسان كثير الخطأ والنسيان..

وكلنا ثقة بالقارئ الكريم، بأنه سوف ينصفنا، ويتحفنا بما يظهر له من هنات، وما يسجله من ملاحظات.. وسنكون له من الشاكرين.

اللهم أعنا على أنفسنا، وأصلح لنا أعمالنا، وهب لنا البصيرة في الدين، وامنحنا الإخلاص فيما نقول ونعمل، إنك على كل شيء قدير.

حرر بتاريخ: 11 شهر شوال 1437 هـ.ق.

16 تموز 2016 م. ش.

عيتا الجبل (عيثا الزط) قضاء بنت جبيل ـ جبل عامل ـ لبنان.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفهرس